طبائع الرؤى ، واللمح الخاطف إلى سرعة التناول والمعالجة بشكل يعكس - تلقائيا - سرعة التنقل والعدو عبر أحواء الصحراء المفزعة (ليلها ونهارها على السواء) . وكأن المقطوعة عند الصعاليك متلت - ضمن ما مثلته - نمطا من أنماط الخروج على بنية القبيلة ، وشكلت ضمن ما شكلته - ضرباً من ضروب الرفض لما تعارف عليه شعراؤها، فكانت - بمصطلح الباحث - خروجا على العقد الفنى الذى يستكمل دائرة الخروج على العقد الاجتماعى ، ألم يتندر تأبط شرا بابن القبيلة فى إحدى اللوحات الساخرة التى رآه - فى جانب منها - غير صالح لأن يعتمد عليه أو يستعين به ، والويل - كل الويل - لمن يلجأ إلى ابن القبيله موضع ذلك التندر والاستهزاء :

فذاكَ هَمّى وغَزْوِى أستَغِيثُ بِهِ .. إذا اسْتُغِيثَ بضَافى الرَّأْسِ نَعَّاقِ

كالحِقْفِ حَدّاه النَّامُونَ قُلْتُ له .. ذو ثُلَّثَيْنِ وَذُوبَهْمٍ وأَرْبَاقِ .

فقد طرح المفارقة بين مشهد الصعلوك الجاد كما يراه ويعتد بمسلكه فى مقابل الرعاة من أبناء القبائل ممن صورهم على المستوى الجسدى والنفسى والاجتماعى بهذا الشكل التهكمى المتهالك من «ضافى الرأس» و «النعاق» إلى التشبيه بالحقف ، والتوقف عن حرفة الرعى ، وأرياق الإبل والأغنامّ وكأنما أفقد الرعاة إمكانية التشبه بالفرسان أو الاقتراب من عالمهم ممن أدرج الصعاليك ضمن دوائرهم ، حيث صدروا عن مقومات الفروسية ، فكانت أساساً لطرح المفارقات ، ورسم الجوانب الفنية لصورة الصعلوك ولوحة الصعلكة ، ولعل هذا المشهد قد مثل قاسما مشتركا بين أبناء الطائفة وأقطابها الكبار ، وقد عمّقه عروة بن الورد باعتبار زعامته للصعاليك ، وتوحده الفكرى معهم مما صوره قوله المشهور:

أُقَسِّمُ جِسْمى فى جُسُومٍ كَثِيرَةٍ .. وأَحْسُو قَرَاحَ المَاءِ والماءُ بَارِدُ

فكان هذا التوحُّد واحداً من مؤشرات مداخله الأصلية إلى الاقتناع بفلسفتها ، ومحاولة الإقناع بها ، كما كان كاشفا عن تجليات خاصة بتحمل التبعة بين الرفاق ، والركون إلى مقومات الحركة ومعطياتها ، تلك التى عرض